كان موكب الشوار فى طريقه من المنصورة الى القرية يختال على صوت الزغاريد وعلى حداء القروية الصبية التى سارت فى مقدمة الموكب تحدو بلحن ساذج وصوت رخيم

يابنت الاكابر ياسابقة الدلال   ياسكر مكرر ياخمرة حلال

فتردد عشرات من الصبايا حداءها مرحات . وكان الموكب مكونا من اربعة حمير تحمل ماثقل من جهاز العرس . . السرير المعدنى والحشية القطنية والزير واللحاف والصندوق التقليدى الموشى بصورة السبع الاحمر الذى استل سيفه وتهيأ النضال . ثم تسع أو عشر صبايا تحمل كل منهن ملحقا من ملحقات الشوار اختصرت فيه كل منهن حملها الى أقل ماتستطيع حتى يضخم الموكب وتستطيل القافلة ويبدو الشوار المتواضع عظيما فى عين من تراه من عابرات السبيل

وكانت النسوة والصبايا يكررن الحداء ، الا أخت العريس وأم العروس وعجوزين أخريين يمشين فى صف واحد خلف الموكب يثرثرن ثرثرة العجائز المألوفة فى مثل هذه الظروف فأم العروس تمجد ابنتها وأخت العريس تفاخر بأخيها ، وبين التمجيد والمفاخرة تسقط من فميهما بلا وعى ، الفاظ كالرصاص ، تحاول كل منهما فيها أن تثبت للأخرى أن هذا الزواج تضحية من جانب الطرف الذى تنتمى اليه ، والعجوزان الشاهدتان تومئان

opeikandi.com

بالاكف والالسنة والرءوس موافقة على كل رصاصة تطلق ، وكل زمرة توضع فى أكليل الزفاف .

* * *

كانت بنت الاكابر « صابحة أم الحاج » كما كانت تسمى فى القرية ابنة رجل نجار احدى قدميه على حافة القبر ، والاخرى يضرب بها فى أرض القرية حيثما وجد قوت الكفاف .

كانت زهرة القرية ، بعينيها الواسعتين الزرقاوين ، وشعرها الذهبى الاصفر ، وأنفها الدقيق المسحوب وفمها الذى بدت منه شفتان كفلاقتى ورد تنفرجان عن صفين من اللؤلؤ ، وكأنما أشفقت علل الريف ومتاعبه على شبابها الغض ، وجسمها الريان ، وبياض جلدها المشرب بحمرة كحمرة الفجر الوليد ، وتركتها تنمو وتتفتح وتصبح بين لداتها وأترابها من عذارى القرية ، ذوات الوجوه السمر ، والشباب الذابل من المرض ، والاجسام العجفاء من أثر الرق والشقاء والارهاق — كالزنبقة فى حقل من الشوك . وعندما كانت ترى فى جوار أبيها نفسه ، بوجهه البشع ، وتقاطيعه الضخمة ، وأنفه الاقنى وشفتيه الغليظتين ، وجسده الهزيل ، ولونه النحاسى من الظاهر والباطن كانت صابحه تبدو كأنها دخيلة مائة فى المائة ، على هذا الأب ، كحمامة بيضاء انفلقت من بيضة غريبة فى وكر غراب .

وكانت أينما مشت فى الحقل ، أو فى القرية أو فى طريقها الى الترعة . . تتلقفها مئات العيون الشرهة . . ولكنها لاتجسر على الدنو منها . لأن الكل كانوا يعلمون أنها محظية عبد الغنى افندى ابن العمدة وليس عبد الغنى افندى بمركزه الممتاز وذراعه المفتولة وطبيعته المفطورة على الشر بالخصم الذى تؤمن منافسته على غرام !

كانت تنهدات حارة تخرج على مرآها وعلى ذكراها كذلك

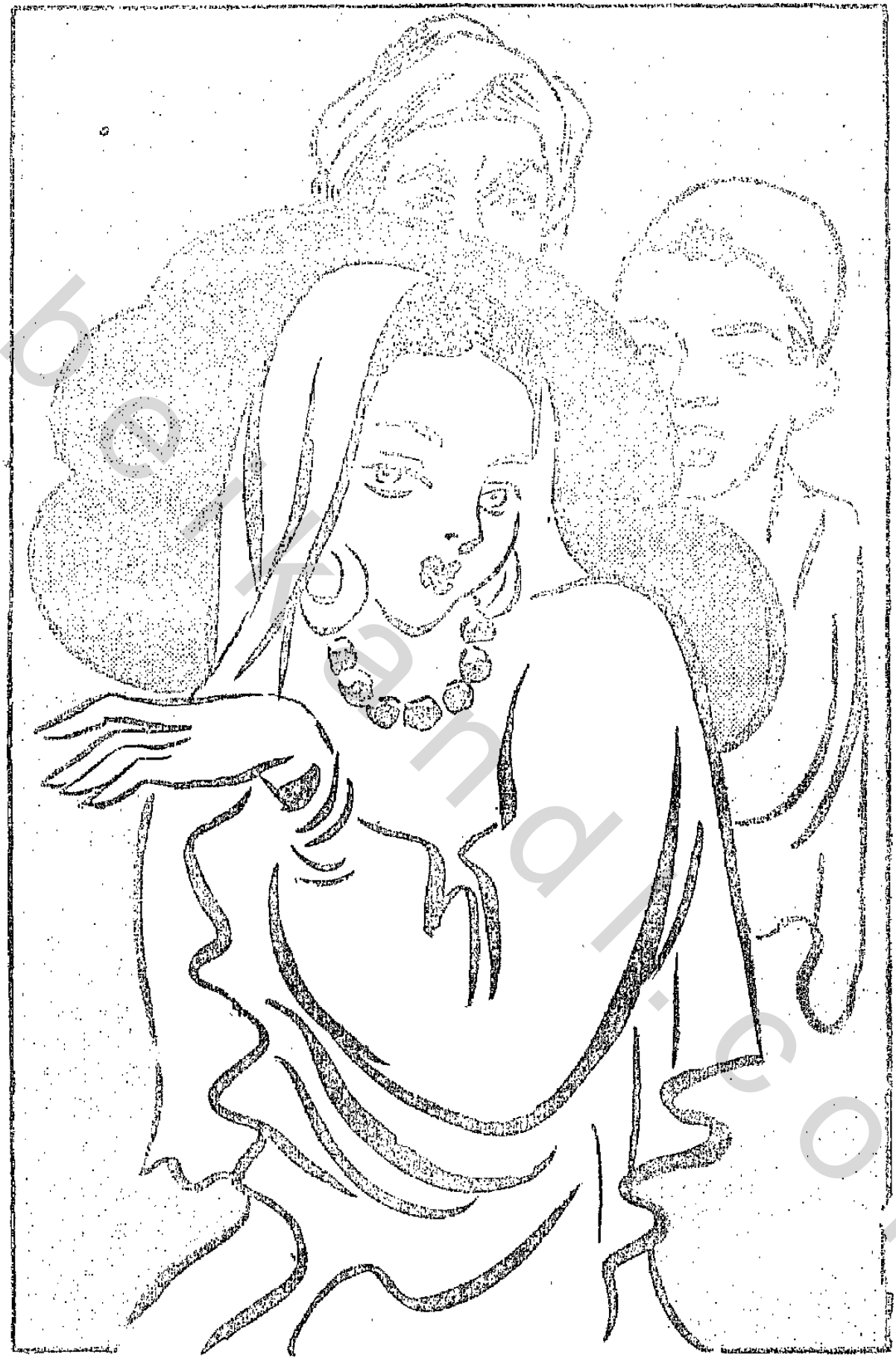

كانت زهرة القرية ، ابنة نجار احدى قدميه على حافة القبر
والاخرى يضرب بها حيثما وجد قوت الكفاف

obeikandl.com

من صدور كثير من القرويين .. ولكنها كانت تنهدات تفنى فى الهواء فناء الدخان .

وكان العريس الذى ستزف اليه يكبرها بخمس عشرة سنة ، وكان من حيث الشكل والقوام ضريب ابيها الحاج عبد الكريم .. كان هو وهى كعودين من الخروع والآس ...

ولم يكن شفيعه فى هذا الزواج انه مالك ثلاثة افدنة .. ولكن لانه الشخص الطيب المسالم المؤتمن الذى رشحه عبد الغنى افندى ليسدل الستار على الفضيحة الشائعة وينقذ اسمه من كلام الناس ... وينقذ سمعة صاحبته التى لاكتها الافواه ..

❋ ❋ ❋

كان عبد الغنى افندى شابا عاطلا عرضه أبوه على المدرسة فلفظته .. وعرضه على التجارة فتغذى بالمكسب ، وتعشى برأس المال وباع عظم دكانه واشترى به لبنت الاكابر وشاحا من الحرير الاسود ، وقرطا من الذهب ، وخلخالا من الفضة ومرآة ..

ولما لم يكف عظم الدكان تآمر مع شيخ الخفراء على ان يسرق القطن والقمح من أبيه ويشترى لها من نصيبه فى الاسلاب ماتريد . وتركه أبوه — تحت الحاح أمه وكان ولدها الوحيد — على هواه واكتفى بأن يحاسب شيخ الخفراء والخفراء وشيخ البلد كذلك ، وأعيان القرية . وبالربا الفاحش على كل برج من القطن أو حبة من القمح تسرق من مخازنه — أولا تسرق — وترك لهم حرية ضرب رءوسهم فى أول جدار يصادفهم فى الطريق !

وفى ليلة الفرح بعد أن فرغت القرويات من جلوة العروس دخل عبد الغنى افندى بمنتهى البساطة على العروس الجالسة كأميرة فى أبهى حللها على الكرسى الخيزران المستعار من بيت العمدة ، فطبع على خدها قبلة ووضع فى يدها جزءا من ثمن العجلة التى سرقها من معلف ابيه فى الصباح ، ثم هنأ العريس — حجاج — وشد على

obeikandi.com

يده اعترافا بالجميل ، ثم خرج من حيث أتى يشيعه غناء الصبايا وترنيم الزغاريد .

* * *

أن هذه القبلة التى وضعها عبد الغنى افندى على خد العروس ، أوقدت نارا فى قلب « حجاج »

أنها خارجة على كل تقاليد التهانى وعلى كل شروط الصفقة التى اتفق فيها الاطراف الثلاثة حجاج وعبد الغنى وصابحة على أن ماقيل فى « صابحة » وسمعتها كان كله أباطيل ، وان ماحدث بين الطرفين الثانى والثالث لم يتعد النظرة والابتسامة والسلام ووقفة تحت هذه الشجرة أو تلك يتحدثان عن تربية الدجاج ، وحلاوة الفطير الذرة بالعش والعريس ، وسعر الحرير المشجر فى السوق وان الطرف الاول الذى هو العريس المحظوظ له الحق فى أن يعتبر نفسه مالكا بلا شريك للطرف الثالث الذى هو « صابحة » بنت الحاج عبد الكريم !

ان هذه القبلة لم يرد عنها نص فى الاتفاق ، وقد أثارت حجاج اكثر مما أثاره منظر القميص المخضب الذى طاف به القرويات فى صحن الدار عقب الزفاف وهن يرقصن وينشدن على نقر الدفوف « قولوا لبوها ان كان جمان يتمشى ! »

لقد نظر الى هذا القميص نظرة فيلسوف ، واعتبره ماضيا ذهب يسرى عليه البند الاول من بنود الاتفاق .

أما هذه القبلة .. لقد كان يحس عند مجرد تذكرها ان دمنا من الرصاص يجثم فوق قلبه بلا رحمة

مع ذلك فقد سكت .. ولم يتكلم لانه برغم الثلاثة الافدنة التى يملكها .. تذكر ان غريمه هو ابن العمدة وانه فوق ذلك قوى ، وسفيه ، وخليق بالمداراة . وكل الذى فعله هو انه عندما رد فى صباح ليلة العرس على تحية أحمد افندى الحداد المدرس الالزامى بالقرية ، وجاره فى المسكن ، استوقفه على غير العادة ،

وأخذ بلا تمهيد ولا مقدمات ولا ذكر أسباب يشتم العمد وأولاد العمد ويلعن الزمن الذى جعل لهم كل هذا الدلال والتعالى على الناس .

لقد كانت « صابحة » فى نظره قبل ان يتزوجها امرأة عادية لاتثير فى نفسه الخامدة أكثر مما يثير منظر عجله مكتنزة اللحم جميلة القرون !

لكن عندما تركزت عيناه على وجهها الجميل وعلى جسدها البض . . وعندما سرت كهرباء شبابها الريان من هذا الجسد الدافىء الى جسده الذاوى أحس ان دما جديدا يجرى فى عروقه . دما ملتهبا تركزت فيه صبابة اربعين عاما قضاها فى جوع روحى وحرمان .

واعتزم من هذا اليوم ان يدافع عن كنزه كما يدافع عن كل شبر من فدادينه الثلاثة .

كان يؤمن بالقاعدة الذهبية ان درهما من الوقاية خير من قنطار من العلاج . ومن اجل هذا لم يترك « صابحة » دقيقة واحدة تختلى فيها الى نفسها وتراودها على استئناف الشرب من كأس الهوى والشباب والامل المفقود .

كان يأخذها معه فى الحقل ، ويعود معها الى الدار ، ولا يترك لها فرصة لتتقدم أو تتأخر عنه اكثر من ثلاث خطوات .

وقد حرم عليها ان تذهب بجرتها الى الترعة الا معه وان تذهب بالعجين الى الفرن الا ان يكون ملاكها الحارس فى الطريق ، كما حرم عليها لبس القرط والخلخال والوشاح الحريرى الاسود ، وأبى عليها أن تضع فى عينيها الكحل . ولو استطاع لوضع فى كل عين من عينيها جمرة تخمد فتنتها الى الابد وتترك له الجسد الرخيص . . الجسد الاعمى يتعبد له آمنا شر العيون والارصاد .

وثارت « صابحة » على هذا الحصار العنيف المضروب من

حولها ، وحاولت أن تلين قلبه بألفاظ الهوى تسكبها فى أذنه فى ساعات ضعفه برقة وسخاء ونفسها تتقزز .. وتنهمر على خديها دموع الحقد فتوهمه انها حشاشة قلبها من أجله تذوب . وكان يرق فى بعض الاحيان ثم تعاوده ذكرى قبلة غريمه فى ليلة الزفاف . فتتقلص عضلات وجهه حنقا وتشتد قبضته المسترخية كأنه يفكر أن يخنقها ويستريح .

كانت « صابحة » تسمع صوت عبد الغنى افندى وهو مار فى الحارة كل ليلة . . يحاول أن يعلو به على خوار البقر الآيب من الحقل فتحس ان قلبها يتلوى .. ولكنها لا تملك حتى رفع صوتها لتشعره أنها تسمع وتستجيب .

وفى أحد الايام رأته من صحن الدار وهو يطل عليها من نافذة فى بيت احمد افندى الحداد المدرس الالزامى .. فوقفت امامه كوثنية تتطلع الى صنم .. ووقعت الجرة من يدها وكانت تحاول أن تفرغها فى الزير : وخانتها الالفاظ والاشارات وتسمرت عيناها على وجه المحبوب ولكن صدرها ظل وحده يعلو ويهبط بعنف كأن فيه زلزالا يحاول ان يشق طريقه الى الدنيا من فوهة بركان .

ورآها زوجها على هذه الصورة فتملكه غضب جارف ودفعها امامه دفعا من والجاموسة خارج الدار . وركل بقدمه الحافية بقايا الجرة المكسورة . . فجرحت قدمه جرحا لم يكد يحس له بألم ..

دفعها امامه ولم يستطع أن يفعل اكثر من ذلك لان غرامه كان أقوى من غيرته . ولان غريمه كان أعز منه جاها ونفرا

وبدأ من هذا اليوم يخاصم المدرس الالزامى ويلعنه كما خاصم ابن العمدة ولعنه ، لانه سواء برضاه أو على الرغم منه ، قد فتح لزوجته هذه الكوة لتطل منها على دنياها الاثمة ، وهواها الاسير

وأصبح كالمجنون ... توقظه من فراشه مذعورا همسة العصفار ، ونقيق الضفدعة وقضم الفار كسرة من القديد ، ويتوهم فى كل غرارة فى ركن الدار شبح عاشق يتستر ، ويلبس من خياله ومن شعاع القمر كل وجه يلقاه فى الطريق صورة « ابن العمدة » يحاول ان يسرق منه كنزه المعبود

وفى مرة كان يصلى ، ويختتم تحياته فوجد نفسه بلا وعى يقول :

(اللهم اجرنى من النار وعذاب النار واكتبنى مع الشاهدين .. اللهم اخرب بيوت العمد والمدرسين الالزاميين)

واحس فى اخر اللعنة فقط انه يخرج من صلاته فاستغفر الله نادما ، واستعاذ من الشيطان وأكمل الصلاة

على ان العدو لم يلبث ان وجد ثغرة فى هذا الحصار المضروب ، واعانته الظروف

كان حجاج يروى ارضه فى احدى ليالى الخريف ، فترك صابحة تسوق الجاموسة المعلقة فى الساقية ، ونزل الى الارض ليقطع السدود امام الماء

كانت الجاموسة متعبة ، فأبطأت فى المسير على مدار الساقية ، فانهالت عليها صابحة بالسوط بلا رحمة ، كأنما تحاول ان تفرغ فى البهيمة الخرساء كل السم الذى شربته من صاحبها فى بضعة أسابيع

واندفعت الجاموسة فى المدار تلهث وتترنح ، فانهالت تحت حافرها قطعة من المدار ، وسقطت فى بئر الساقية بين المدار والتابوت وأخذت معها النير الذى تحطم ، وملأ سكينة الليل بضجة رددتها الحقول

ونسيت صابحة نفسها ، وأطاعت وحى الغريزة القروية ، فصاحت بكل حنجرتها تطلب الغياث ، وادرك الزوج ماحدث ، فأقبل مهرولا الى الساقية يشاطر زوجته الصياح فى طلب المعونة

وهـــو يفك الزمـــام عن عنـــق الجاموسة العاثرة حتى لا تختنق

وتردد صدى هذه الاستغاثة في القرية القريبة والقرى المجاورة فترك الآكل طعامه وترك الراقد فراشه ، وترك العـــامل عمله ، وهرع الجميع الى مصدر الصوت يتصايحون

أقبل الاعـــداء والاصـــدقاء والاقارب والغرباء يمد كل منهم يده للمعونة ، لا يسألون ماهى المصيبة ولا من المصاب

كان عبد الغنى أفندى واحمد أفندى الحداد بين المقبلين

وتكاثرت المشورات وتعـــالت الصيحات ، وتنافرت الجهـــود المبذولة للانقاذ ، ولـــكن مـــع الاخلاص الذى ســـاد الموقف ، أنقذت الجاموسة فى ساعة وبعض ســـاعة ، وخـــرجت من البئر ســـالمة بين صيحـــات الرجال وزغاريد النساء

وأخذ المنقـــذون ينصرفون ، بلا انتظار لكلمة شكر ، لان قانون القرية فى المصائب العامة يتنزه دائما عن رخيص المجاملات

وتلفت حجاج الى حيث كانت زوجتـــه فى بداية الكارثة تحت شجرة التوت المطلة على الساقية فلم يجدها

ثم أرسل بصره هنا وهنـــاك فوجدها على جسر ارض الذرة ورأى فى نهاية الطريق وعلى ضوء القمر ، ظهر عبد الغنى أفنـــدى بمعطفـــه الابيض الملطخ بالطـــين منسلا من بين أعـــواد الـــذرة ، ومتجها نحو القرية

وتذكر أن عينيه لم تقعا على عبد الغنى افندى طول عمليـــة الانقاذ

ولفتـــه عقرب الغـــيرة ، وتوهجت عيناه تحت شعاع القمر كما تتوهج أعين المردة والشياطين

ترى هل يلحق غريمه ويترك للقوة البدنية أن تحكم بينهمـــا وليكن مايكون ؟ . .

ترى هل يذهب الى صابحة ، فيحطم رأســـها ببقـــايا النـــير المكســـور ؟

مئات من هذه الاسئلة تواردت على خاطره الثائر فى لحظـة ، ولكنه لم يجرؤ على مواجهة أى سؤال منها بجواب ..

لقد وجد نفسه بين زوجته .. وغريمه ... عبدا رقيقا يتلوى تحت عدة سياط

وفجأة أبصر أحمد أفندى الحداد المدرس الالزامى على مقربة منه يلبس حذاءه على شاطىء الترعة بعد ان غسل قدميه من الطين ، واصلح سترته التى تمزقت من الجذب والشد بين أيدى المنقذين وهو يجاهد معهم فى انقاذ الجاموسة جهاد الابطال .

فالتقط جذع النير المكسور وبلا وعى ولا تردد هوى به على رأس أحمد افندى الحداد ... لقد عجز حجاج عن الحمار فأفرغ غيظه كله على البردعة ونفث حقد الليالى الماضية بطولها على رأس أحمد أفندى الغريب ... الضعيف المسكين .

واحس لاول مرة فى هذه المعركة بلذة الظافر . وهو يطأ راس ضحيته البريئة بقدمه . ويخيل له انه يطأ رأس غريمه المبيع ...

ومضى الى حيث كانت زوجه يضحك ضحك المجنون ، ويغنى بصوت قبيح : —

« يابنت الاكابر ...
ياسايقة الدلال ! ! »

لدى الآلة الكاتبة
انسخوا مذكراتكم واطبعوها
الدار على استعداد لاتمام جميع الأعمال الخاصة بالمكاتب
وهى تقوم بتوريد وتصليح الآلات الكاتبة والحاسبة
٢٧ شارع عبد الخالق ثروت باشا

obeikandl.com